منَ الرواية إلى التدوين

لم تعد معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك ، إن كثرة منهم فى الحواضر ، وقلة فى البادية ، كانت تقرأ وتكتب . ولم يعد مناط اختلاف أن بعضًا من آثارهم الأدبية قد دُوّن ، لكنها آحاد لا تبرّر التعميم ؛ لأن الشعر أكثر ما يكون فى البادية ، والبادية أكثر ما تكون راحلة ، وما يكتب عليه فى تلك الحقبة من التاريخ – حجارة أو عظمًا أو خشبًا أو أديمًا أو عسيبًا أو قماشًا ، وكان أندرها وأغلاها ثمنًا – لا يتهيأ نقله فى سهولة ، فقصروا تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية ، من الصكوك والعهود والأحلاف والمواثيق ، والرسائل المقتضبة ، والكتب الدينية ، والقليل من الشعر ، أمّا كثرته الغالبة فكان مجال حفظها الذاكرة والرواية .

وقد اضطلع الشعراء أنفسهم بدور هام فى الرواية ، فكانت لهم المدرسة التى يتعلمون فيها صوغ الشعر ونظمه ، والتمرّس بأساليب الكلام وفنون القول ، ومن أراد أن يصبح شاعرًا لزم واحدًا من فحولهم ، يحفظه عنه ، ويروى له ، ويترسم خطاه ، وبدينا معلومات لا بأس بها عن اتصال هذه الروايات . كان زُهير بن أبى سُلمى راوية أوْس بن حَجَر ، وكان كعب بن زهير والحطَيْئة راويتى زهير ، وكان هُدْبَة بن خَشْرم العذرى راوية الحطيئة ، وجميل بُثَينة راوية هدبة ، وكُثير عزّة رواية جميل ، وتكاد الخصائص الفنية لشعر كل منهم تتقارب مع خصائص سابقه ولا حقه ، ومن تأمُّلِ هذا الإسناد تدرك أن الراوية قد يكون ابن الشاعر ، أو أحد أقربائه ، وقد يكون غريبًا عن القبيلة كلها ، فالحطيئة عَبْسىّ من مضَر ، وهدبةُ عذرىّ من حِمْير . ويصبح دور الراوى أكثر أهمية بعد وفاة الشاعر ، لأنه يتعدى مهمة نشر قصائده إلى جمعها ، وإظهار الظروف والمناسبات التى أوحت بها ، وتفسير الإشارات التاريخية التى تتضمنها ، ويصبح بحكم الواقع أمينًا على تراث حياة صانعه ، ومناط اهتمام القبيلة التى ينسب فيها .

وكان شعراء كل قبيلة وأفرادها يروون شعر أسلافهم ، وظهور شاعر كبير فى

القبيلة مدعاة للفخر ، والاحتفاظ بآثاره شيء تفرضه العصبية ، وضياعها أمر يمس شرف القبيلة ، وأصدقاء الشاعر يستظهرون بعضا من قصائده . وثمة فارق بين حفظ القبيلة وحفظ الراوية ، القبيلة تحفظ من قصيد شاعرها ما يعى شأنها ، ويسجل أمجادها ، فإذا تعرّض لحرب هُزِمت فيها تناست ذلك الشعر ، ـ ما يمسها منه على الأقل ، وروايتها له لا تجرى على نسق واحد ، وإنما ترتبط بأعمار أفراد القبيلة وأمزجتهم . يحفظ منه الشباب ما كان غزلا يمسّ العواطف ، ويرتد الرجال ما كان حماسة تلهب المشاعر ، ويتمثل الشيوخ ما كان حكمة ترضى العقل ، أما الراوية المحترف فيحفظ ذلك كله ، الغزل والحماسة والحكمة ، الرثاء والهجاء والفخر ، ما بلغ فيه الشاعر القمة أو قصر عن الإجادة .

ويصمت الحديث عن تدوين الشعر وتخفّ حدة روايته بعد البعثة المحمدية ، فقد كان من العسير ، والإسلام فى نشأته يقيم نظامًا ، ويؤسس دولة ، ويضع نماذج جديدة للسلوك العربى ، أن تجد فكرة تدوين ، أو حتى رواية ، شعر ملئ بالمفاخر القبلية ، وبما كان الإسلام ضده ، ترحيبًا أو قبولا من أحد ، إلى جانب ما شُغِل به الناس من غزو وتشريع ، وما ملأ وجدانهم من أفكار ومُثُل . أورد ابن سلام فى طبقاته قول عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه[1] » ثم عقّب عليه بقوله « فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم ، ولهتْ عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنّت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، ألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ؛ فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم من كثير[2] . وقد كان عند

---

(١) خلط الدكتور محمد مندور فى كتابه « النقد المنهجى عند العرب » ص ٩ ، القاهرة ١٩٤٨ ، بين هذه الفقرة وتعقيب ابن سلام عليها ، وجعلها قولا واحدًا لواحد ، ونسبها خطأ إلى أبى عمرو بن العلاء .

(٢) اقتصر الدكتور ناصر الدين الأسد فى كتابه القيم « مصادر الشعر الجاهلى » على هذا القدر من رواية ابن سلام ، لسبب لا أعرفه ، ومضى يعقب عليه فى قسوة : « كلام ابن سلام هذا ثلاثة شطر : آخرها حق ، ووسطها باطل ، وأولها يحتاج إلى فضل بيان يوضحه ، أما الحق الذى لا مرية فيه فقوله : « فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » .

وأما الباطل الذى لم نعد نشك فى بطلانه وفساده فهو التعميم الواسع فى قوله : « فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب » . وفى حماسة أخذ يورد أمثلة من كتاب ابن سلام تنقض قوله هذا .

النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه » .

ويأتى بن خلدون فيعطى الأمر مزيدًا من الإيضاح والتفصيل والتحديد : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحى ، وبما أدهشهم من أسلوب القرآن ونَظْمه ، فأخرسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانًا ، ثم استقرّ ذلك ، وأنس الرشد من الملّة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحَظْوه ، وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه » .

إلّا أنه لم يكد النظام الإسلامى يستقر وتتوطد دعائمه ، بقدر لا يخشى معه رواية قصيدة أو تبجّح قبيلة ، حتى عاد الناس يروون ويكثرون من روايته ، ويتحدثون عن تدوينه كخاطر يرد فى الأذهان أو يمكن أن يتحقّق ، ولدينا إشارة عن تدوين تَمّ تعود إلى النصف الثانى من القرن الأول للهجرة ، فقد كتب أعشى همدان ، عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ، قصيدة عام ٦٥ هـ - ٦٧١ م عن أحداث تلك السنة ، وكان الأعشى جنديا فى الجيش الذى وجهه الحجاج بن يوسف الثقفى لفتح بلاد ما وراء النهر ، بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى ، ومن توافق الصدف أن أقدم « مصور جغرافى » فى العربية يعود إلى هذا الجيش ، فعندما استبطأ الحجاج حصار قائده لبخارى ، أرسل إليه يطلب منه « مصورًا جغرافيًّا » للمنطقة ، وعندما تلقى هذا « المصوَّر » درس الوضع الحربى فى ضوئه ،

ولو مضى الأستاذ الدكتور بالرواية إلى نهايتها كما انتهينا بها ، لما كان فى حاجة إلى اتهام أو دفاع ، لأن الرجل كما نرى ، فى بقية الرواية ، يعرف أن من الشعر العربى ما كان مدونًا ومنذ العصر الجاهلى ، لكنه يتحدث عما هو غالب وشائع وعادة .

وفى بادئ الأمر تصورت أن الدكتور ناصر الدين رجع إلى نسخة من طبعات ابن سلام غير التى أرجع إليها ، وأن الفقرة الأخيرة ساقطة منها ، ثم تبينت أنه يستخدم نفس النسخة ، وهى بشرح العالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ، والنص فيها كامل ، فلم يبق إلا أنه اجتزأ النص لسبب غير واضح ، أو سها عن بقيته ، وهو ما أميل إليه . انظر :

الدكتور ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، ص ١٩٤ و ١٩٥ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٦ .

ابن سلام الجمحى ، طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٢ و ٢٣ ، شرح الأستاذ محمود محمد شاكر ، دار المعارف القاهرة ١٩٥٢ .

وأرسل إلى القائد بتعليماته . وفيما بين عامى ٨٠ و ٨٤ هـ وجد فى كرمان[١] ديوان شعر لأبى جلدة اليشكرى . وفى نفس هذه الفترة اتخذ عبد الحكيم بن عمرو بن عبد الله الجَمحى بيتًا جعل فيه شطرنجات ونردات وقِرْقات[٢] ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل فى الجدار أوتادًا ، فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفترًا فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم . وكان فى « كُتّاب » معاصره الضحاك بن مزاحم ثلاثة آلاف صبى يتعلمون القراءة والكتابة ، وكان يطوف بهم على حماره .

فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الأول الهجرى ، بداية الثامن الميلادى ، أصبح بين أيدينا من الدلائل ما يجعل تدوين الشعر أمرًا مقرّرًا . فالخطاط خالد بن أبى الهياج كان يكتب للخليفة الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ - ٧١٥ م) « المصاحف والشعر والأخبار » . وسلامة القس كانت تملك بعد وفاة عمر بن أبى ربيعة (ت ١٠١ هـ - ٧١٩ م) مجموعة من أشعاره التى يُغنّى بها . والخليفة الوليد بن يزيد (ت ١٢٧ هـ - ٧٤٤ م) أمر بجمع « ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها » . لكن هذا التدوين كان ، فيما يبدو ، عملا عفويًّا وفرديًّا ، يخضع لأذواق الأشخاص ومتطلبات السياسة . ويخيل إلى أن طريقة الكتابة فى البدء . كانت وراء قلة التدوين ، وانتشار الرواية ، لأنها - رغم الإصلاحات التى أدخلت على النقط والإعجام زمن الوليد بن عبد الملك - لم تكن كافية لرسم النصوص الصعبة المحشوة بالكلمات النادرة ، وأسماء الأمكنة الغريبة ، فبقى الاعتماد على الذاكرة أمرًا ضروريًّا لقراءة القصيدة المكتوبة قراءة دقيقة وصحيحة ، إلى أن ثبتت فيما بعد قواعد الرسم والإعجام ، على نحو ما سندرسه بعد قليل .

ولا نكاد نتجاوز القرن الأول الهجرى ، ونمضى فى الثانى شيئًا ، حتى نلتقى بطبقة جديدة من الرواة العلماء ، من العرب أو الموالى ، يعيشون فى الحضر ، وعلى دراية واسعة بحياة البدو ، يجيدون لغة الأعراب ، ويعرفون أساطيرهم وأخبارهم

---

(١) كرمان : مقاطعة فى إيران .

(٢) النرد: ما يعرف اليوم بالطاولة . قرقات : جمع قرقة ، وهى لعبة للصبيان .

وأنسابهم ، ويتمتعون بذواكر قوية ، وعلى اتصال دائم بسكان البادية ، يرحلون إليهم فى منازلهم ، أو يلقونهم فى الحواضر ، يمتهنون جمع الشعر وحفظه وروايته ، ودرسه وتفسيره وإذاعته ، ويجمعون إلى مشافهة الأعراب ما قرءوه مدوّنا ، أو تلقوه عن شيوخهم علمًا . والجيل الأول منهم ، كابن السائب الكلبى[١] وعوانة ابن الحكم[٢] ، وحماد الراوية[٣] ، لم يدوّن من روايته شيئًا ، فقد تكفّل **هشام بن السائب** راوية مأثور أبيه ، وكان **عوانة** كفيفًا يملى ولا يكتب ، ويقول **ابن النديم** فى كتابه « الفهرست » : « لم يرد لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده » . بينما آثر الجيل الذى تلقى عنهم الرواية ، أو عاصرهم فى تلقيها وكان أحدث منهم عهدًا ، أن يدوّن ما سمع ، أو يترك لتلاميذه مهمة التدوين . ولم يكن علماء الطبقة الأول يُسندون رواياتهم ، وكان مَن بعدهم يرتفع بها إليهم ، وينتهى عندهم .

كان هؤلاء الرواة يتفاوتون فيما بينهم صدقًا وأمانة ودقة ، تبعًا لتكوينهم الطبقى والعنصرى والثقافى ، وصمودهم أمام ضواغط البيئة حولهم ، سياسية واجتماعية وعلمية ، أو استجابتهم لها . حتى إذا استكملت الحياة الثقافية مقوماتها فى البصرة والكوفة . تميزت كل منهما بطابع أثر عنها وعُرفت به ، وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة استهدفت وضع قواعد عامة للغة تلتزمها وتسير عليها فى دقة وحزم ، فأهدرت الشواذ ، وخطأت بعض العرب ، وإذا اصطدمت قواعدهم بما هو ثابت من صحيح الرواية قالوا : « يحفظ ولا يقاس عليه » . بينما احترمت مدرسة الكوفة كل ما جاء عن العرب ، تجيز للناس استعماله ، ولو كان لا يلتزم القواعد العامة ، وهم بهذا أقرب إلى فهم طبيعة اللغة ومنطقها – إنْ كان للّغات منطق ! – وكانت الخصائص العامة لكل مدرسة

---

(١) محمد بن السائب بن بشر الكلبى ، أبو النضر ، من أصل عربى ، قضى حياته بين البصرة والكوفة فى دراسة التفسير والأنساب والتاريخ ، توفى سنة ١٤٦ هـ – ٧٦٣ م .

(٢) عوانة بن الحكم ، من بنى كلب ، كان عالمًا بالشعر والأنساب والأخبار ، توفى عام ١٤٧ هـ = ٧٦٤ م . ذكر ابن النديم فى الفهرست أنه ألف « سيرة معاوية وبنى أمية » وقد ضاعا ، وأغلب العلماء على أنهما كتابان منفصلان ، وأراهما كتابًا واحدًا .

(٣) سنعرف به بعد قليل ، انظر ص ٢٢ .

لا تظهر فى اللغة وحدها ، وإنما تتجاوزها إلى ما وراء ذلك من الآثار والأخبار . وأدّى التنافس بين المدرستين إلى تعصب كل فريق لمدرسته ، واتهام المدرسة الأخرى وتضعيفها ، وتبادلَ العلماء تهمَ الجهل والوضع والتحريف ، أمر يجعل مهمة الباحث أكثر مشقة وهو يوازن بين الآراء والروايات ، ينخلها ويصفيها من الدوافع الشخصية والحزازات .

كان رأسَ هذه الطبقة **أبو عمرو بن العلاء** ، عربى من تميم ، مؤسس **مدرسة البصرة** فى النحو وشيخها ، وأحد القرّاء السبعة ، ومن أعلم الناس بالقرآن ولغاته وتفسيره وغريبه ، وكان إمامًا فى الشعر والنحو واللغة وأيام العرب ، ثقة مأمونًا حتى عند الكوفيين ، ولد بمكة سنة ٦٩ هـ - ٦٨٩ م ، ونشأ فى البصرة ، وتوفى فى الكوفة قافلا من رحلة إلى دمشق عام ١٥٥ هـ - ٧٧٠ م ، وكان أبوه مشهورًا معروفًا وقائمًا على « طراز » الحجاج[١] وجدّه عمّار من أصحاب على بن أبى طالب ، رضى الله عنه . وقد مدح الفرزدقُ الشاعرُ أبا عمرو بن العلاء وأثنى عليه فى أبياته :

ما زلتُ أفتحُ أبوابًا وأغلقِها ... حتى أتيتُ أبا عَمْرو بنَ عمَّار
حتى أتيتُ فتى مَحضًا ضَريبتُه ... مُرَّ المريرة حرًّا وابنَ أحْرار
يُنَمّيه من مازنٍ فى فرع نَبْعتها ... أصلٌ كريمٌ وفرعٌ غيرُ خوّار[٢]

---

(١) قيما على نسيج ثياب الحجاج .

(٢) اختلف القدامى فى معنى « أفتح أبوابًا وأغلقها » . بعض شراح شواهد سيبويه ، والبيت الأول منها ، قالوا : أراد « أنى كشفت عن أحوال الناس وفتشتهم فلم أر فيهم مثل أبى عمرو » .

وقال **ابن السيد البطليوسى** ، فى شرح أدب الكتب : « الفتح والإغلاق هنا مثلان لما استغلق عليه - على الفرزدق - من الأمور وما انفتح » .

وروى **أبو بكر محمد التاريخى** فى كتابه « طبقات النحاة » بسند إلى الأصمعى أنه قال : حدثنى أبو عمرو بن العلاء قال : دخل على الفرزدق فغلقت أبوابًا ثم أبوابًا ، ثم فتحت أبوابًا ثم أبوابًا ، فأنشا الفرزدق : « مازلت أفتح .. البيت » . وأورد رواية أخرى ، بسند آخر ، إلى الأصمعى نفسه : « دخل الفرزدق على أبى عمرو بن العلاء ، وصعد إلى غرف فقال « مازلت .. » .

وقال **أبو عبيدة البكرى** فى شرح أمالى القالى : « إن عمرو بن العلاء كان هاربًا من الحجاج مستترًا ، فجاء الفرزدق يزوره فى تلك الحالة ، فكان كلما يفتح له باب يغلق بعد دخوله ، إلى أن وصل إليه فأنشد الأبيات .

والحق مع شراح الشواهد وابن السيد ، فما أظن الفرزدق ذهب ليعد أبواب بيت أبى عمرو وغرفه ، وهى على التأكيد لم تبلغ حدا من الكثرة يثير عجب الفرزدق وخياله . ورواية أبى عبيدة البكرى ينقضها معنى

دوَّن أبو عمرو قدرًا كبيرًا من الشعر العربى ، وبخاصة الجاهلى منه ، إلى جانب الأخبار المتعلقة به ، وطبقًا لرواية أبى عبيدة ، فإن ما كتبه « ملأ بيتًا له إلى قريب من السقف ، ثم تقرّأ - أى تنسّك - فأحرقها » ، ولم يعد يهتم بعد إحراقها إلّا بالقرآن ودراساته . ولا يعنى ذلك ، فيما أرى ، أنه أعرض عن الشعر تمامًا ، فدراسة القرآن ، فى تلك الفترة من الزمن ، كانت تقوم فى جانب منها على تفسير غريب القرآن ومجازه بالشعر ، لكن القصة تدل ، دون شك ، على أن بعض المتنسكين كان يستشعر الحرج فى دراسة وتدوين آثار أدبية تمجّد من الأخلاق ، أو تبيح من المحظورات ، مالا يرضى عنه الإسلام . إلّا أن ضياع كتبه لم يحرمنا كلية من علمه الواسع ، فقد كان له طلاب كثيرون تثقفوا من علمه ، ونهلوا من فيضه ، وحفظوا كثيرًا مما روى وما جمع ، ونقلوه إلينا شفاها ، أو مدوّنًا بيد طلابهم فيما بعد .

ثم حلفه فى مدرسة البصرة أنجب تلاميذه **خلف بن حيّان** ، ويكنى أبا محرز البصرى ، **ويعرف بخلف الأحمر** ، (وُلد ١١٥ هـ = ٧٣٣ م وتُوفى ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) ، من أبناء الصغْد من فرغانة ، سباهم قتيبة بن مسلم الباهلى ثناء افتتاح بلاد ما وراء النهر ، وجئ بهم إلى البصرة ، وكان خلف مولى **أبى بُردَة بن أبى موسى الأشعرى** ، فأعتقه وأعتق أبويه . وأمضى طفولته ، وكانت شقيّة ، فى أوساط البصرة العلمية ، أخذ اللغة عن أبى عمرو بن العلاء ، وأخذ النحو عن عيسى بن عمر النحوى (ت ١٤٩ هـ = ٧٦٦ م) ، وجمع علمًا كثيرًا ، فكان عالمًا بالغريب والنحو والأنساب والأخبار ، شاعرًا كثير الشعر جيده ، ولم يكن بين نظرائه من هم أكثر شعرًا منه ، وله خطرات نقدية صائبة . « سئل : من أشعرُ الناس ؟ فقال : ما ينتهى هذا إلى واحد يُجتمع عليه ، كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس . فقيل له : أيهم أعجب إليك يا أبا محرز ؟ قال : الأعشى » . فهو لا يرتضى ما كان شائعًا فى عصره من نقد يقوم على الخاطرة والذوق والهوى دون احتياط أو استقراء أو تفصيل فى التعليل ، وعنه تصدر أحكام التفضيل المطلق للبيت أو القصيدة أو الشاعر ،

البيتين الثانى والثالث ، وأن الحجاج حين كان فى قمة تجبره ، كان أبو عمرو طفلا صغيرًا ، أو صبيا ناشئا على أكثر تقدير .

ولكنه لا يتردد فى أن يصرّح بمن يلتقى مع هواه من الشعراء ، حق يراه لغيره ، كما ارتضاه لنفسه ، وبتقريره يستحيل أن يلتقى الناس على رأى إذا ما سئلوا : من هو أعظم الشعراء ؟ .

كان خلف أول من أحدث السماع فى البصرة ، وقرأ عليه أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، لأنه أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغًا لم يقاربه حماد ، وأجمع الناس فى الكوفة والبصرة على الإقرار بمعرفته الدقيقة والواسعة بالشعر الجاهلى ، وقدرته المصيبة على تمييز الصحيح من المنحول ، يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرسَ الناس ببيت شعر ، وأصدقهم لسانًا ، كنَّا لا نبالى إذا أخذنا عنه خبرًا ، أو أنشدنا شعرًا ، ألا نسمعه من صاحبه » . ويذكر ابن النديم فى « الفهرست » أن له « كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر » ، وقد ضاع الكتاب نفسه ، ولكن الجاحظ احتفظ بفقرات منه فى كتابه « الحيوان » . وكان خلف شاعرًا ، ويروى ياقوت فى كتابه « إرشد الأريب إلى معرفة الأديب » : « أن له ديوان شعر حمله عنه أبو نواس » ، وكثر قول الشعر فى وصف الحيات ، وأراجيزه فى ذلك كثيرة ، وما وصلنا من شعره يعكس مقدرة فائقة على النظم ، ولا يدل على موهبة شعرية حقيقية ، والأبيات التى رواها له ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » ، لون من الفكاهة المستملحة فى ذمّ جماعة من الحجاج البخلاء :

سقىَ حُجّاجَنا نَوءُ الثريَّا ... على ما كان من بُخْلٍ ومطْلِ
هُمُ جمعوا النعال وأحْرزُوها ... وشدُّوا دونها بابًا بقُفْلِ
فإنْ أهديْتَ فاكهةً وجدْيًا ... وعشر دَجائجٍ بعَثوا بنِعْلِ
ومِسْوَاكين قَدْرُهما ذِراعٌ ... وعَشْرٍ من ردِىّ المُقْلِ خشلْ[1]
أناسٌ تائهون لهم رُوَاءٌ ... تغيم سَماؤهم من غيْرِ وبلِ[2]
إذا انْتَسبُوا فَفَرْعٌ من قُريشٍ ... ولكنّ الفِعالَ فِعالُ عُكْلِ[3]

---

(١) المقل : حمل الدوم ، والدوم : شجرة معروفة تشبه النخل . الخشل :الردىء من كل شىء، وقيل هو رطب المقل وصفاره الذى لايؤكل .

(٢) الرواء : المنظر الحسن – الوبل : المطر الشديد .

(٣) عكل : « قبيلة فيهم غباوة وقلة فهم ، ولذلك يقال لكل من فيه غفلة ويستحمق : عكلى » .

وقد مر خلف بالأزمة النفسية التى مر بها أستاذه أبو عمرو بن العلاء . من قبل ، فنسك وتقرّأ فى أواخر حياته ، وكان يختم القرآن فى كل يوم وليلة ، « وبذل له بعض الملوك ما لا عظيما خطيرًا على أن يتكلم فى بيت شعر شكوا فيه فأبى ذلك ، وقال : قد مضى لى فى هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه » .

اتُّهِمَ خلف ، كما اتهم غيره ، بالوضع والنحل ، فقيل إنه كان يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه ، وأنه وضع على شعراء عبد القيس شعرًا موضوعًا كثيرًا ، وعلى غيرهم ، عبثًا بهم ، وأنه نحل أبادواد الإيادى أربعين قصيدة ، وكان يأخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب ويعطيه المتحول ، « فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها ، وكان فيه حمق » ، وأنه نظم لامية العرب المشهورة ، التى أولها :

أقيموا بَنِى أمّى صدورَ مَطِيكُمْ فإنى إلى قومٍ سواكم لأَمْيلُ

ثم نسبها إلى الشنفرى ، كما صنع القصيدة التى مطلعها :

إن بالشِّعْبِ إلى جَنْبِ سَلْع لقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

ونحلها ابن أخت تأبط شرًّا ، « فلما تقرّأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم » .

هذه الفقرة الأخيرة تكشف فى جلاء قيمة الروايات التى ترمى خلفًا بالوضع ، وتنزع القناع عن الأسباب التى وراءها ، فليس خلف هدفًا فى ذاته ، إنما الهدف المدرسة الكوفية وعلماؤها ، فما داموا قد تلقوا عنه ، وسمعوا منه ، فلابدَّ أن يكون وضّاعًا ، ويصبح ما بين يدى الكوفيين من روايات موضع شك ومطعونًا فى صحته . والرواية تفصح نفسها بنفسها ، فمن العجيب أن يمضى عالم إلى قوم أخذوا عنه ، فيدلهم ، حقًا أو افتراضًا ، على مازل منه عفوًا أو قصدًا ، فيرفضوا تصحيحه ، ويعرضوا عن اعترافه ، ويبقوا على زيفهم ، ويصير ذلك فى دواوينهم إلى اليوم » !

أكثر تلاميذ أبى عمرو بن العلاء ثقة وشهرة هو الأصمعىّ ، عبد الملك بن قُرَيْب ، من أصل عربى ينتسب فى باهلة ، الضاربة فى الجنوب الشرقى من البصرة ، ولد ١٢٢ هـ = ٧٣٩ م ، وتوفى عن تسعين عامًا فى ٢١٥ هـ = ٨٣١ م ، ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة ، وأكثر

الخروج إلى البادية ، وشافه الأعراب ونقل عنهم ، وربما استغرقت رحلته إليها سنوات ، وأمضى جانبًا من حياته فى الحجاز وبغداد ، فأكسبه ذلك علمًا واسعًا بالجاهلية ، لغاتها وأخبارها وأشعارها ، فاكتسب مكانة ممتازة فى الأوساط الأدبية كأستاذ وعالم ، وكان موضع إجلال الخليفة هارون الرشيد . وكافأه مرة بعشرة آلاف درهم لأنه أجاد فى وصف فرس له ، مستدلا على كل صفة ببيت من شعر جرير بن عطية الخطفى الشاعر المشهور[1] . وتميز عن سابقيه بتقواه العظيمة ، شديد الاحتراز فى تفسير القرآن والحديث ، فإذا سئل عن شىء منهما يقول : العرب تقول معنى هذا كذا ، ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة ، وخلال فتنة خلق القرآن ، اعتزل الناس وقبع فى بيته ، وحرص المأمون على أن يصير إليه ، فاحتج بضعفه وكبر سنه ، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها . ورئى بعد ذلك راكبًا حمارًا دميما ، فقيل له : « أبعد برادين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال : هذا وأملك دينى أحب إلى من ذاك مع فقده » .

كتب **الأصمعى** كثيرًا ، فى مجالات مختلفة ، وتبلغ مؤلفاته اثنين وأربعين مصنفًا ، بينها كتاب خلق الإنسان ، وكتاب الأجناس ، وكتاب الخيل ، وكتاب النوادر ، وكتاب معانى الشعر ، وكتاب الأراجيز ، وأغلبها غير مطبوع ، ورويت عنه دواوين كثيرة ، منها ديوان امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة ، وعلقمة الفحل ، وله مجموعة مختارة من الشعر القديم تحمل اسمه « الأصمعيات » ، وسوف نعرض لها فيما بعد .

فى الجانب الآخر كان **حمّاد رأس مدرسة الكوفة** ، واسمه حمّاد بن سابور ، وشهرته حمّاد الراوية ، وإليه وحده تتجه كلمة « الراوية » إذا أرسلتْ من أصول فارسية ، وقع أبوه سابور أسيرًا فى الحرب ، وينتمى إلى أسرة محاربة من الديلم . وقد ولد حماد فى الكوفة فى عام ٩٥ هـ = ٧١٣ م ، وتوفى فيها محمورًا عام ١٥٦ هـ = ٧٧٤ م ، وعبر التاريخين أمضى حياة عاصفة مضطربة ، فكان فى بدء حياته لصًا يتشطّر ، فنقب بيتًا على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فلما قرأه استحلاه وحفظه ، ثم ترك التشطّر ، وأقبل على الأدب والشعر

---

(١) تفصيلات الوصف فى : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، الجزء الأول ، ص ١٦٦ وما بعدها ، الطبعة الثانية ، بتحقيق أحمد أمين وآخرين ، القاهرة ١٣٦٧ = ١٩٤٨ م .

والأخبار ولغات العرب . وكان مع حمّاد عَجرد الشاعر ، وحمّاد بن الزّبرقان النحوى يكونون فى الكوفة ثالوثًا مزعجًا ، يعيش حياة لاهية ، منطلقة غير مسئولة ، يتنادمون ويتعاشرون وكأنهم نَفْس واحدة ، ويُرْمَوْن جميعًا بالزندقة ، وتثير حياتهم نقمة الطبقة المحافظة ، وكثيرًا ما كان يلقى بهم فى السجن فلا يبرحونه إلا بعد شفاعة من كبير يمدحونه ، وكانوا مع يحيى بن زياد الحارثى ، ومطيع بن ياس يتهاجون ويتغزّلون ، ويقولون شعرًا لا يخلو من رقّة وبساطة .

كان حماد يتمتع بذاكرة قوية حافظة ، تعجبه الأسطورة ، ويهوى النادرة ، يستطيع أن يسترجع مئات القصائد المطولة من الشعر الجاهلى ، وأن يميّز بينها وينسبها إلى قائليها ، و « المعلقات » التى بين أيدينا من روايته ، وكان إلى جانب ذلك شاعرً ممتازًا ، وروى له الأصمعى شيئاً من شعره ، وأحيانًا عامدًا أو ناسيًا يخلط شعره بشعر غيره ، ومن المؤكد أن طبيعة العبث فيه كانت تتجاوز حياته الخاصة إلى نشاطه العلمى ، فأصبحت نزاهته موضع شكّ وجدال عنيف .

كان المفضل الضبى (ت ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م) ، وهو كوفى مثله ، يقول عنه فى مرارة : لقد سُلّط على الشعر من حمّاد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟

قال : د ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا .. ولكنه رجل عالم بلغات العرب وشعرها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ويقول ابن سلام « فى طبقات فحول الشعراء » : « كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حمّاد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعرَ الرجل غيرَه وينحله غيرَ شعره ، ويزيد فى الأشعار » . ويضيف ابن سلام : « وسمعت يونس (ابن حبيب) يقول : العجب لمن يأخذ عن حمّاد ، كان يكذب ويلحن ويكسِرُ » .

ولكن لحملة على حمّاد ، رغم كل شىء ، يجب أن تؤخذ فى حذر شديد ، ونحن « نميل إلى أن نعدَّ أكثر ما اتهم به حمّاد موضوعًا ، دعت إلى وضعه عوامل عدة

منها : هذه العصبية التى كانت متأججة بين البصرة والكوفة ؛ ومنها تلك المنافسات والخصومات الشخصية كالتى كانت بين المفضل وحماد ، ومنها العصبية السياسية ، فقد كان حمّاد أموى الهوى والنزعة ، وكانت دولة بنى أمية قد وَلت وأقبلت دولة جديدة تناصبها العداء ، وتريد أن تمحو محاسنها وآثارها ، وتحطّ من قيمة من اشتهر فيها أو نال لديها حظوة ، ومنها : أن حمّادًا كان - باعتراف الرواة - كثير الرواية واسع الحفظ ، فكان يروى ما لا يعرفه غيره ، ويحفظ ما لا يحفظون ، فاتهموه بالتزيد والوضع . وقد ساعد على كيل هذا الاتهام له وتضعيفه وتجريحه أنه كان ماجنًا مستهترًا بالشراب مفضوح الحال »[1] .

الرجل الثانى فى مدرسة الكوفة ، ويلى حماداً الراوية فى العلم ، ويسبقه فى الثقة ، **هو المفضل الضبّى** ، أبو عبد الرحمن المفضل بن محمد بن يعلى . من أصل عربى ، ولد فى فارس حيث كان أبوه من موظفى الديوان ، وشارك فى ثورة العلوى إبراهيم بن عبد الله الملقّب بالنفس الزكية ضد الخليفة المنصور . وأجاره فى بيته زمنًا ، وقد سُجن ثم أُخْلى سبيله فيما بعد ، وأصبح أستاذًا للمهدى ابن الخليفة ، كان عالما بأخبار الجاهلية وأنسابها ، راوية للشعر وأيام العرب ،قال عنه ابن سلام : « أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبى الكوفى » وتتلمذ عليه جلة من كبار رواة عصره وعلمائه ، فكان من تلاميذه : أبو عمر إسحاق بن مرار الشيبانى ، وابن العربى ، والفرّاء ، وخلف الأحمر ، وأبو زيد الأنصارى البصرى وغيرهم . وترك لنا كتابين : الأول « المفضليات » مجموعة رائعة من الشعر الجاهلى ، وسنتحدث عنه فيما بعد ، والثانى « كتاب الأمثال » والراجح أنهما من روايته ، وأن الذى تولى عملية الجمع والتدوين هم تلاميذه من بعده . وقد توفى المفضل فى الكوفة فى بدء خلافة هارون الرشيد . حوالى عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م .

كان هؤلاء هم الطبقة الأولى من العلماء الرواة ، وقفوا جهدهم على رواية التراث العربى ، حين لم تكن الكتابة أداة حفظه الأولى ، يجمعون ما تبعثر من خبره ، وينخلون ما اختلط من أمره ، وإليهم تسند روايته ، وهم يشيعونه بين

---

(١) الدكتور ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٥٠ .

تلاميذهم فى حلق الدرس ، ويجادلون حوله فى مجالس السمر . فصنعوا الطبقة الثانية ، تسمع منهم ، وتعى عنهم ، وتحفظ مأثورهم وتقيّده أحيانًا ، فإذا اقتربنا من نهاية القرن الثانى الهجرى وتجاوزناه إلى الثالث ، القرن التاسع الميلادى ، ظهرت لدينا طبقة ثالثة ، على رأسها **ابن الكلبى** (أبو المنذر هشام بن محمد ت ٢٠٦ هـ = ٨٢١ م) ، **والهيثم بن عدىّ** (أبو عبد الرحمن ت ٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م) ، **وأبو عمر الشيبانى** (إسحاق بن مرار ٢١٣ هـ = ٨٢٨ م) ، **وابن الأعرابى** (أبو عبد الله محمد بن زياد ت ٢٢٥ هـ = ٨٣٩ م) ، **وابن حبيب** (أبو جعفر محمد ت ٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م) ، **وابن السّكّيت** (أبو يوسف يعقوب ت ٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م) ، **والطوسى** (أبو الحسن على بن عبد الله ٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م) ، **والسكرى** (أبو سعيد الحسن بن الحسين ت ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م) ، **وابن الأنبارى** (أبو بكر محمد بن القاسم ت ٣٢٨ هـ = ٩٢٩ م) ، **وثعلب** (أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م) وهى طبقة جعلت همها الأوّل ترتيب وإكمال وتدوين ما انتهى إليهم من علماء الطبقتين الأولى والثانية ، ومعهم بدأ التخصّص فى الدرس يعرف طريقه ، وبهم بدأ لتدوين يصبح محور الثقافة وأداتها .